﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شـأنُ الأنبياء الإنكارُ لأعمال غير العقلاء

لمّا هال صالحًا ﷺ افتراقُهم وتناحرُهم حولَ ما دعاهم إليه من توحيد الله والإيمان به، وهو شأنٌ حريٌّ بالعقلاء ألا يختلفوا حولَه، وأنَّ الأوْلى أن يُقبِلوا عليه شاكرينَ للدّاعي حرصَه عليهم، لكنَّ الكافرين منهم بالغوا في إنكار ما يدعوهم إليه نبيُّهم ﷺ، حتى استعجلوا نزولَ العذاب بهم لو كانَ صادقًا، بعدَ ذلك استعادَ صالحٌ ﷺ نشاطَه وأبعدَ عنه ذهولَه، فاستأنفَ قائلًا لهم، مجيبًا عمّا سألوه عند الاختصام من نزول العذاب، مُنكرًا عليهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: (عجل) أصلُ التَّعْجيلِ الإسْراعُ، يُقال: تَعَجَّلَ الشَّخْصُ، أيْ: أسرعَ وفَعَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أوانِه، وهو الاندفاعُ وطَلَبُ العَجَلَةِ[1]. والعَجَلَةُ: خلافُ البُطْءِ والتَّأخُّرِ، والتَّأجيلِ والإمْهالِ، ومعناها: السُّرْعَةُ. ويَأتي التَّعْجيلُ بمعنى التَّقْديم، يُقال: تَعَجَّلْتُ لَهُ الطَّعامَ، أيْ: قَدَّمْتُهُ له قَبْلَ نُضْجِهِ. وهو أيضًا: السِّباقُ إلى الشَّيْءِ، تَقول: تَعَجَّلْتُ الشَّيءَ، أيْ: سَبَقْتُهُ[2]. والمُراد بالتَّعجيل في الآية: طلَبُ حصولِ الشَّيء قبلَ حُلولِ وقته[3].

2) ﴿تَسۡتَغۡفِرُونَ﴾: (غفر) الغَفْرُ في الأصْلِ التَّغْطيَةُ والسَّترُ، ويُرادُ بِها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/ 447.

ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها[1]. والغُفْرةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[2]. والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال والفِعال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّه هو أن يَصون العَبدَ مِن أنْ يَمَسَّه العذابُ[3]. والمرادُ بالاستِغْفار في الآية: طَلَب الغَفْرِ، أَي: السَّتْر والتَّجاوزُ عن الذُّنوب.

3) ﴿تُرْحَمُونَ﴾: (رحم) أصلٌ يدلُّ على الرِّقَّةِ والعطفِ والرَّأفة، يُقالُ من ذلك: رَحِمَهُ يرحمَه، إذا رَقَّ له وتَعطَّفَ عليه. والرَّحِمُ: علاقَةُ القَرابة، ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هذا؛ لأَنَّ منها ما يكونُ وما يُرحَمُ ويُرَقُّ له من ولَدٍ[4]. والرَّحْمَةُ: اسمٌ مصدرٍ لصفةِ الرّاحِمِ وهي من صفاتِ الإنسانِ، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تبعثُ على سَوْقِ الخيرِ لمن تتعدَّى إليه، وإذا وُصِف به البارئ سبحانه فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المجرَّدُ دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحمَةَ من اللّه إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[5]. والرَّحْمَةُ أيضًا: القرآنُ[6]، والمغفرةُ[7]، والنُّبوة[8]. والمقصودُ بالرَّحمة في الآية: ما بِهِ رِفْقٌ بالغَيْرِ وإحسانٌ إليه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستغفارُ سببٌ لرفعِ العُقوبةِ وجلْبِ الرَّحمةِ

كان هذا القولُ من صالح ﷺ للفريق المكذِّب من قومه، إذ قال: يا قوم، لأيِّ شَيءٍ تَطلُبونَ عذابَ اللّه، ولا تَطلُبونَ رحمتَه، هلّا تتوبونَ إليه من كُفركم، فيغفرَ لكم عظيمَ جُرمكم ويصفحَ عن عقوبتكم على ما أتيتُم به من الخطايا، لعلكم تُرحمونَ بقبولها، إذ قد جرَتْ سُنّتُه ألّا تقبلَ التوبة بعد نزولِ العقوبة[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(3) الراغب، المفردات: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(5) الراغب، المفردات: (رحم).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/ 358، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/ 75.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(8) الشهاب، عناية القاضي: 5/ 90، والمراغي، تفسير المراغي: 15/ 173.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 214، والمراغي، تفسير المراغي: 19/ 147.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمّا قبلها:

طلبُ استعجال العذاب حمقٌ وجهالة

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ جاء مفصولًا عمّا قبله، لوقوعه موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر تقديره: فماذا قال لهم صالحٌ عليه السلام، لمّا افترق قومُه فريقينِ مؤمنين وكافرين، وبالغَ الكفارُ في موقفِهم منه، فاستعجلوا وقوعَ العذاب، الذي حذَّرَهم منه حينَ قال لهم مُحذِّرا لهم من المَساس بالناقة بما يَسوؤُها: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]، ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ [الأعراف: 77] ليكون وقوعُه دليلاً على صدقه، وعندها يؤمنون، فكان الجواب: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾. وعليه فبينَ الجملتين شبهُ كمال اتصال.

دلالةُ التعبير بالقولِ في قوله: ﴿قَالَ﴾ عند الدعوة:

صبرُ الأنبياء نبراسٌ للدّعاة

التعبير بـ(القول) في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ دليلٌ على أنّه عليه السلام قد صبرَ عليهم، وتلطَّف بهم وأقامَ بينه وبينهم حوارًا؛ ليقنعَهم بصحَّة ما دعاهم إليه، وبحرصه عليهم من أنْ يَنالهم سوءُ العذاب بكفرهم، وإنما أجرى القولَ على لسانه دونَ أفراد قومه؛ لأنَّه المتحدِّث بلسان فريقِ المؤمنين، وجاءَ بصيغة الفعل الماضي للدلالة على القطع بوقوعِه وتكلُّمِه معهم حثًّا لهم على الإيمان والعملِ الصّالح.

دلالةُ النِّداء في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

من دواعي النداء إيقاظ الأسماع الواقرة وتنبيهُ القلوبِ الغافلة

من شأنِ أسلوبِ النداءِ استرعاءُ الانتباه والتيقّظ لما سيأتي في طيِّه وهو المنادى من أجله، وهذا من دواعي استعماله واللُّجوء إليه، فقوله عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فيه إيقاظٌ لهم من غفلتهم؛ لينتبِهوا إلى ما يريد إلقاءَه عليهم من جليلِ الأمور وعظيمِها، وفي النداءِ تصويرٌ لتلك المخاصمةِ الواقعة بينهما؛ إذ جعلَهم لا يسمعونَ النُّصح ولا ينتبهونَ للمعاني فأراد إيقاظَهم وإسماعَهم وتنبيهَهم.

دلالةُ التعبير بالقوم وحذف الياء:

نداءُ العطف والشفقة المزوجين بالقوّة والشدّة

مناداتُهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دليلٌ على حرصِه عليهم وتلطُّفِه بهم، وهذا شأنُ كلِّ الرُّسُل ﷺ مع أقوامِهم، وحرص ﷺ على مناداتهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دون غيره في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ استثارةً لعواطفِهم باسم الأخوة في النّسب، فإنَّ من شأن هذه الأخوّة استنفارَ أواصر القُرب بينه وبينهم، بأن يدلَّ ذلك على حرصِه عليهم، وإدراكِ أنَّه لن يدلَّهم إلا على ما فيه مصلحتُهم، وأنْ يستشعروا هم هذا الحنوَّ وتلك العاطفة، فيقبلوا على طاعتِه ودعمه في دعوتِه. وقد حُذفت ياءُ الإضافة من قوله: (قوم) فلم يقل: (قومي) تخفيفًا واستغناءً عنها بالكسرة لكثرةِ الاستعمال، فإنَّ من دواعي تلطُّفه ﷺ بهم أنْ يكثرَ من نداء: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، وكأنّه لم يُضفهم إلى نفسه إضافةً واضحة بالياء؛ لأنهم لا ينتمونَ إليه عندَ المخاصمة والمجادلة واللَّد، فهو عطفٌ مخلوطٌ بالشدَّة، وحنوٌّ ممزوجٌ بالقوَّة.

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿لِمَ﴾:

روحُ الخصام تؤجّجُ غضبَ المتكلّمين

نتلمّس في هذا الاستفهام المختزَل روحَ الخصام المتأجِّجة بين الفريقين المتنازعين؛ فريق الإيمان وفريق الكفر، واختارَ المتكلم أداةً يتحقّقُ باختزالها التكثيفُ في الإنكار والتوبيخ على طلبهم آياتٍ يتجلَّى فيها تعذيبُهم وإفناؤهم إنْ كان صادقًا فيما ينقلُه من وحي سماويٍّ، فكان الاستفهام الإنكاريُّ الرافض لذلك الاستعجالِ الدالِّ على عدم الرويَّة في سماع الآيات والبراهين الصّادقة.

بلاغةُ الجواب عن استعجالهم العذابَ مع أنّه لم يُذكر:

القرآنُ الكريم وحدةٌ موضوعيّةٌ متماسكةٌ يفسّر بعضُه بعضًا

دلّ قولُ نبيِّ اللّه صالح ﷺ لقومه كما ورد في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ عن سؤالٍ محذوفٍ من فريق الكفر بطلبِ نزولِ العذاب بهم إنْ كان صادقًا في دَعواه، فتضمّنَ قوله جوابًا عن استعجالِهم العذابَ؛ على أنَّ المراد بالسيّئة هنا

العذابُ، مع أنَّ النص الكريمَ لم يتضمّنِ الإشارةَ إلى العذاب، اعتمادًا على تصريحِهم بذلك في حوارٍ آخرَ معه، قد نقله القرآنُ في قوله سبحانه: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: 77]، وهذا يدلُّ على أنَّ القرآن الكريم وحدةٌ واحدة يُجملُ في موضع ويفصّل في آخَر، فيغدو وحدةً متماسكةً يفسِّر بعضُه بعضًا.

سرُّ التعبير بالاستعجال دونَ غيره في قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾:

المبادرةُ إلى الاهتداء أليقُ من تعجُّل نزول العذاب

العَجَلَةُ: طلبُ الشيء وتحرّيه قبلَ أوانِه[1]؛ والقصدُ من استعمال هذا اللّفظ مقرونًا بالاستفهام لومُهم على طلبهم العجلةَ في وقوعِ العذاب بقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: 77] بدلَ أن يتعجَّلوا بقبولِ الهداية. أوْ أنَّ المراد بهذا الاستعجال الإصرارُ على مباشرةِ أسبابه[2]. وقد ناقش الزمخشريُّ علّةَ استعمال لفظ (الاستعجال) في الآية الكريمة، فقال: فإنْ قلت: ما معنى استعجالِهم بالسيّئة قبلَ الحسنة؟ وإنما يكون ذلك إذا كانتا متوقّعتينِ إحداهما قبلَ الأخرى؟ قلتُ: كانوا يقولونَ لجهلهم: إنَّ العقوبة التي يَعِدُها صالح عليه السلام إنْ وقعَتْ على زعمه، تُبْنا حينئذٍ واستغفرْنا - مُقدّرين أنَّ التوبة مقبولةٌ في ذلك الوقت - ! وإنْ لم تقعْ، فنحن على ما نحنُ عليه، فخاطبَهم صالح عليه السلام على حسبِ قولهم واعتقادِهم[3].

دلالة التعبير بصيغة المضارع ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾:

استحضارُ الماضي درسٌ للمستقبل

قولُه عليه السلام ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ باستعمال صيغةِ المضارع يدلُّ على أنَّهم كانوا يكرّرون استعجالَهم العذاب ويردّدونه كثيرًا، تحدّيًا لصالح عليه السلام، وثقةً منهم في عدمِ وقوعه. وقيل: صيغةُ المُضارِع لحكايةِ الحال الماضية باستحضارِ صورة الماضي وكأنَّها تقع الآن؛ لبيان سوءِ

(1) الراغب، المفردات: (عجل).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 175.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 371.

اختيارهم وضعفِ عقولهم، والسّين والتاء في ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ للطّلب، تدلُّ على شغَفهم بمطلوبهم ورغبتهم بتحقُّقه وإلحاحِهم فيه؛ والاستعجالُ من العبد، والتعجيلُ من الله تَعالَى بمعنى: الإسراع[1].

دلالة التعبير بالباء في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

المبالغة والتحدّي في الطلب مستدعيانِ التأكيدَ والتقوية

الباءُ في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ مزيدةٌ لتأكيدِ اللّصوق وتقوية ارتباط الفعل بالمفعول، فقد صارَ كلُّ خصومتِهم أنَّهم يُطالبونَ بنزول العذاب تكذيبًا له في تخويفِهم وتهديدِهم، مما يدلُّ على أنَّ الاختصام ينقطعُ عند العَجْز والضّعْف إلى المطالبة متحدّين بنزولِ العذاب إنْ كان صادقًا، وزيادة الباء مثلُ ما ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6][2].

بلاغةُ حذفِ الموصوف وإبقاء الصّفة في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾:

شأنُ الكافرين المسارعةُ إلى تكذيب الأنبياءِ والمصلحين

كلمتا ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ و﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ صفتانِ لموصوفٍ محذوفٍ؛ فالسّيِّئة: صفةٌ لمحذوف، أي: بالحالة السيّئة، وكذلك الحسنة، أي: الحالةُ الحسنةُ. فيجوزُ أن يكون المراد بالسيِّئة الحالةَ السيئةَ في معاملتهم إيّاه بتكذيبهم له مسرعينَ. والمرادُ بالحسنة ضدُّ ذلك، أي: تصديقهم لما جاء به[3]. ولعلَّ من فوائد حذفِ الموصوف أنْ يَحْتَمِلَ تقديرُه أكثرَ من احتمال، فبينما احتملَ أن يكون المرادُ به في الموضعين التكذيبَ والتصديق، فإنَّه يَحتملُ أيضًا أن يراد بالسيِّئة استعجالُ العذاب، وبالحسنة الاهتداءُ والتوبة الموصلانِ للرَّحمة والإحسانِ، وبينَ كلٍّ من الموصوفينِ المقدّرين تلازمٌ واقتضاء؛ فإنَّ من استعجل التكذيبَ يكون متعجِّلًا لنزول العذاب، والعكس صحيح، ولذا حذفَ الموصوف ليكونَ جامعًا بين المعنيينِ المتلازمينِ والفعلينِ الصّادرينِ من الفريقِ الكافر.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 406.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 280.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 279.

نكتة التعبير بالسيّئة عن العذاب وبالحسنةِ عن التوبة:

السيئات أبوابٌ مشرّعةٌ لنيل العذاب

عبَّر بالسيّئة عن العذابِ من باب تسمية المسبَّب واللازم باسم السبب والملزوم، فالسيّئة هي بابُ العذاب وسببُ وقوعه، وعبَّر عن التوبة والنعيم المقيم بالحسنة لذلك، ولكونها منها فـ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ يعنى بها الطاعة "والتَّوْبَة من أنواع الطاعة"[1]. والغرض من تسمية الشيء باسم سببه إقامة الحجة على أن نزول العذاب كان بسبب ما اقترفته أيديهم من سيئات مستعجلة، ويحتمل المجاز أن يكون استعاريًّا بأن شبه العذاب المستعجل بالسيئة بجامع الإيذاء في كل منهما، وحذف المشبه وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية.

بلاغةُ الطّباق في قوله: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾:

بضدِّها تتميَّز الأشياء

في المقابلة بين ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ و﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ طباقُ الإيجاب، وذكرُ الضدَّينِ على ما فيه من جمالٍ تصويريٍّ وبراعةٍ في التركيب، فإنَّ كلَّ واحد من الضدَّين يبرز ما في الآخر، فقبحُ السيّئة يبرز جمالَ الحسنة فتُقْبَلُ النفس عليها، وجمالُ الحسنة يُبرزُ قبحَ السيّئة فتنفرُ النفس منها؛ فالأشياء تتميَّز بضدها. وللدلالةِ على أنَّ الموقف من الأنبياء ﷺ لا يكونُ إلا بين طريقين لا ثالثَ لهما: إمّا طريقُ السيِّئة والعذاب والنّقمة بسبب التكذيب، أوْ طريقُ الحسنةِ والخير والرَّحمة بسببِ التصديق.

دلالة التعبير بالإفراد والتعريف في ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ - ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾:

ردُّ آيات الله تعالى البيِّنات قبحٌ وسوءٌ

عبَّر بالإفراد في كلمة ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ على إرادة العذابِ أوِ العقوبة، وفي كلمة ﴿ٱلۡحَسَنَةِ﴾ على إرادة التوبةِ أوِ الهداية أوِ الرحمة. أوْ "أنَّ المراد بالسيّئة تكذيبُهم إياه ﷺ، وكفرُهم به، وبالحسنة تصديقُهم وإيمانُهم"[2]؛ وعليه فـ (أل) في المفردتين للعهدِ النّاجم عن إلحاحِهم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 406.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 205.

المستمر أثناء الاختصام بطلب العذاب، وهو الظاهر. ويَحتملُ أنْ تكون (أل) للجنس، والمعنى: لِمَ تبادرونَ إلى جنس السيّئات وتغلّبونها على جنس الحسنات، وهذا قويٌّ أيضًا؛ لأنّهم يُبادرون إلى حقيقة السيئة بكلِّ صنوفها من التحدّي والاختصام والرّفض وطلبِ نزول العذاب، فكأنَّهم لم يتركوا في جانب هذا الحقيقة من سيئةٍ إلا فعلوها.

دلالةُ التعبير بالقبليَّة في قوله: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾:

المبادرة إلى السيئات مانعةٌ من حصول الخيرات

قوله: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ بالنصِّ على القبليّة، وهو قيدٌ زائد غرضُه المبالغةُ في الإنكار[1] وليس المقصودُ بقبليّة السيئة القبليّةَ الزمنيّةَ، فهي قبليّةٌ اعتباريّةٌ، على معنى: مختارينَ السيّئةَ دونَ الحسنة، والتعبيرُ بـ: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ (مجازٌ) في اختيار الأخذ بجانبِ احتمال السيئة، وترجيحِه على الأخذ بجانب الحسنة، فكأنَّهم بادروا إليها فأخذوها قبل أنْ يأخذوا الحسنة[2]. وكان الظّاهرُ استعمالَ الظرف (دون)؛ لأنّهم استعجلوا العذابَ لغرضِ التصديق به، وبعدَ العذاب لن يكونَ هنالك تصديقٌ لانعدام الحياة أصلًا وعدمِ قبول التوبة في حالةِ التعذيب، لكنَّه عبّر بـ(القبليّة) بناءً على ظنِهم الفاسد ووهمِهم الكاسد أنَّ العذاب إنْ نزلَ بهم أوِ اقترب منهم فإنَّهم يُقبلُ منهم توبةٌ واهتداء ونزولُ رحمة عليهم بعدَ المعاينة للعذاب. وقوله: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾؛ جملةٌ حاليةٌ من السيّئة. وفيها تنبيهٌ لهم على خطئهم في ظنِّهم أنه لو كان صالح صادقًا فيما توعّدهم به لعجَّل لهم به، وأنّه ما تأخَّر إلا لأنه ليس بوعيدٍ حقٍّ، لأنَّ العذاب أمرٌ عظيم لا يجوز الدخولُ تحت احتماله في مجاري العقول[3].

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 160.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 280، 13/ 92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 280.

بلاغة جواب صالح عليه السلام لقومه:

تغليفُ التهديد بالشفقة أسلوبٌ دعويٌّ هادف

اشتملَ جوابُ صالح عليه السلام لقومه بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ على أنماطٍ من البلاغة العالية وأسرارٍ لها فوقَ العلوِّ البلاغي تأثيرٌ عاطفيٌّ وجدانيٌّ؛ إذ استهلَّ جوابَه بالنداء الذي من شأنه إيقاظُ القلب الغافل والذهنِ المشوَّش ليستعدَّ لسماع ما هو مهمٌّ، ثمَّ جعل المنادى لفظَ (قوم) وهي كلمةٌ تفجّرُ كلَّ طاقات الحنوّ مع شيء من التهديد والتخويف والشدة لأنه آثرها على (الأخوة) مثلًا، وتحرّكُ كلَّ مشاعر القرب، ليشعُرَ المنادَى بأنَّ مناديَه هو بعضُه الذي يحسُّ بآلامه ويسعى إلى مداواتها، ويفرحُ لأفراحه ويسعى إلى دوامها، ثمَّ يوجِّه إليه السّؤال التقريعيَّ الإنكاريَّ اللّائم الذي يحتاج إلى تعليلٍ، فيستخدم لأجل هذا ما الاستفهامية المسبوقة باللام التعليلية ﴿لِمَ﴾ أي: إن السّؤالَ عن العلة[1]، وهو سؤال يقتضي جوابًا. لكن ما المسؤول عنه؟ إنّه وقوعهم في خطأ تأباه الفطرةُ السويّةُ ويرفضُه العقل السليم، وهو مبادرتهم إلى اختيار ما يضرُّهم على سبيل التحدّي والتكذيب وهو المعبَّر عنه بـ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بدلَ المسارعة إلى ما ينفعُهم وهو المعبَّر عنه بـ ﴿ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ ليحيلَهم من خلال ذلك كلِّه إلى التفكر بتجرُّد، وبالنظر إلى مصلحتِهم الخالصة، فيُجيبوا عن السُّؤال وقد ألقَوا بعصبيّتهم وعنادِهم وراءَ ظهورهم؛ فلو أنَّهم أفادوا من كلامه عليه السلام لبلغوا الغايةَ التي يُريدها منهم، وهو الاهتداءُ والتوبة وامتثالُ الحقّ والإذعانِ له، فمعَ كلِّ صور الشفقة هنالك روحُ الاختصام والجدال في الخطاب لبيان خطئهم وسوءِ اختيارهم.

بلاغةُ فاصلةِ الآية ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾:

يشتملُ هذا التذييلُ على براعة ترتيبِ النتائج السَّليمة على

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 255.

المقدِّمات الصّحيحة؛ ففيه مقدّمةٌ ونتيجةٌ، أمّا المقدِّمة فقد تضمَّنتها جملةُ التحضيض التي حثَّتهم على الاستغفار، أي: طلب المغفرة من الله على ما فَرَط منهم، وأمّا النتيجة فهي ضمانُ قبولِ الله تعالى لتوبتهم واستغفارهم؛ لأنَّه سبحانه رحيمٌ رحمنٌ، وهو ما عبَّرت عنه الجملةُ الدالّةُ على الترجّي والتحقيق: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ترتُّبُ النتائجِ السَّليمة على مقدِّماتها الصَّحيحة

سرُّ التعبير بأداة التحضيض: ﴿لَوْلَا﴾:

عبَّر بـ ﴿لَوْلَا﴾ التحضيضية؛ لأنه ﷺ قصدَ ما تدلُّ عليه من الحثِّ والحضِّ والترغيب في الاستغفار بدلَ المطالبة بالإتيان بالعذاب، وفي استعمالِ الاستفهام ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ سابقًا والتحضيض هنا دلالةٌ على اشتداد الخصومةِ وارتفاعِ مستواها بين الفريقين المتخاصمين، فكانت الأدواتُ اللغويّة منبئةً عنه ومشيرةً إليه.

أدواتُ الاستفهامِ والتحضيض منبئةٌ عن الاختصامِ العنيف

سرُّ تخصيص الاستغفار بالذكر في قوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ﴾:

كلمةُ ﴿تَسْتَغْفِرُونَ﴾ في كلامه ﷺ لا يعني ما قد يتبادرُ إلى بعض الأذهان من أنّه قول: أستغفر الله فقط، بل ما هو أوسعُ من هذا، فالاسْتِغْفارُ كما يقولُ الراغب: طلبُ ذلك بالمقال والفِعال، وقوله تعالى حكايةً لقول نوح ﷺ لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: 10]، لم يُؤمَروا بأنْ يسألوه ذلك باللّسان فقط، بل باللّسان وبالفِعال، فقد قيل: الاسْتِغْفارُ باللّسان من دون ذلك بالفِعال؛ فعلُ الكذّابين[1]. بل قيل: إنَّ لفظ الاستغفار هنا هو كنايةٌ عن الإيمان[2]، وذلك أنَّه حينَ طلبَ منهم الاستغفار لم يكونوا مؤمنين، فكنَّى بالاستغفار عن الإيمان؛ لأنَّ الإيمان يجبُ أنْ يبدأ بتوبة، وأوّلُ مراحلِ التوبة طلبُ المغفرة من الله على ما فاتَ وفرطَ من أعمال السّوء. ويَحتمِلُ أنّهم لمّا طالبوه بنزول العذابِ الموعود بهم إنْ كان

من أماراتِ الإيمان طلبُ المغفرةِ من الديّان

(1) الراغب، المفردات: (غفر).

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 160.

صادقًا في دعواه أصابوا ذنبًا عظيمًا؛ لأنَّ قولهم تشكيكٌ بالمرسَل والرّسول معًا، فطالبَهم بالاستغفار عن مقولتهم السيّئة تلك.

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿تَسْتَغْفِرُونَ﴾:

عبَّر بالمضارع ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ﴾ تهيئةً لنفوسهم، وتوطينًا وتوطئةً لها "لاستحداثِ التوبة منهم والتحلّي بها"[1]، ونلحظُ أنَّ هنالك تناسبًا وانسجامًا بين طلبهم تعجيلَ العذاب وطلبه منهم أن يطلبوا المغفرة بدلًا من ذلك الطّلب الخاطئ، فناسبَ اختيارُ صيغة المضارع لتكون بديلًا موضوعيًا عن صيغة المضارع التي قدَّمها فريق الكفر وهَمًا منهم وخطأً، فهم قد كرَّروا طالبينَ تعجيلَ العذاب، وكان الأَوْلى والأَحرى بهم أن يكرّروا معه طلبَ المغفرة عمّا يطلبونه ويريدونه.

تكرير الاستغفار مكفّرٌ لكثرة ذنوبهم

دلالة تعليق الاستغفار بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

علَّق الاستغفار بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ الربِّ، فقال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: (تستغفرونَ ربّكم) كما جاء في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ [هود: 3]؛ لأنَّ الاستغفار في آية النّمل مُكَنًّى به عن الإيمان، فقام قولُه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ مقام: (لولا تؤمنون بالله)، كما أنَّ جهلَهم وجحودَهم كان متعلِّقًا بالألوهية دون الربوبيّة، فطالبهم باستغفارٍ يليقُ بمجحودهم ليكونَ موافقًا لمطلوبِه منهم بعبادةِ الله وحدَه.

الإنابةُ بالاستغفار إقرارٌ بمكوِّر اللّيل والنهار

دلالةُ التعبير بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾:

كلمة (لعلّ) للترجّي بالنظر إلى المخاطبين به، والمعنى: لتكونوا على رجاءٍ وطمعٍ في أن تنالَكم رحمةُ الله تعالى بالتوبة والإيمان، وفي الترجي تحقيقٌ لحصول الرّحمة، وإبلاغٌ من الله تعالى بقبولِ الاستغفار إنْ هم أقدموا عليه وتعرَّضوا له.

التحقيقُ للمرجوّ داعيةٌ للانخراط فيه

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 160.

سرُّ ترتيب الرَّحمة على الاستغفار:

بالإيمان والاستغفار تستجلبُ الرّحمات

قوله ﷻ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بترتيب الرَّحمة والإحسان إليهم وقبول التوبة منهم والعفو عنهم على الاستغفار والتوبة وطلب الرحمة؛ لأنَّ المراد بالاستغفار الإيمانُ كما مضى بيانُه، والإيمان وأوّلُه التوبة وأوَّلُها الاستغفار هي أسبابٌ لحصول الرَّحمة من الله تعالى، فيكون قد عبّر بالملزوم وهو الاستغفار وأراد لازمَه وهو الإيمان، وبين الرحمة والإيمان تلازم أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 156].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تُرْحَمُونَ﴾:

رحمة الله بالعباد دائمةٌ بدوام الإيمان

عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿تُرْحَمُونَ﴾ وهو دالٌّ على حصول ذلك في المستقبل؛ لأنَّ الرّحمة مترتّبةٌ على حصول الإيمانِ والاستغفار منهم، فإن حصلا استحقّوا الرّحمة، وهذا كلُّه لم يكن موجودًا ولا حاصلًا وقتَ الخطاب، وأمّا الرَّجاء فإنّه مقارنٌ للاستغفار؛ لأنَّ المعنى: استغفروا حال كونكم راجينَ حصولَ الرحمة عند الاستغفار، فالمضارعُ بالنظر إلى (الرجاء) بمعنى المقارن للاستغفار، وبالنظر إلى ذات (الرحمة) فإنه مستقبلٌ عن الاستغفار حاصلٌ عقيبه، فاختار المضارع المنبئَ عن الحاليَّة والمقارنةِ مع الاستقبال، وفي كونها صيغةً مبنيةً للمجهول لأنَّ الفاعل معلوم بقرينة قوله: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾.

دلالة حذف متعلّق ﴿تُرْحَمُونَ﴾:

رحمةُ الله تعالى نعمةٌ لا تعدُّ ولا تحصى

حذفَ متعلِّقَ ﴿تُرْحَمُونَ﴾ لإفادةِ العموم، فتشملُ الرحمةَ في دار الدنيا؛ بكفِّ عذاب الاستئصال عنهم، وفي دارِ الآخرة بإنجائِهم من عذابها وإسعادِهم بنعيمها، فبدلًا من أنْ يقول: (لعلّكم تُرحمون في الدنيا والآخرة) حذف المتعلِّق وأبقى المتعلَّق به ليفيدَ العمومَ والاتساعَ والكثرةَ وعدمَ الإحاطة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستعجال والمسارعة:

التعجيلُ: طلبُ الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت العجلة مذمومةً في عامّة القرآن حتى قيل في الحديث: «العَجَلَةُ من الشّيطان»[1]، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: 37]، وأما قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: 84] فقيل: إنّ عَجَلَتَهُ - وإن كانت مذمومةً - فالذي دعا إليها أمرٌ محمود، وهو طلبُ رضا الله تعالى ولقائه شوقًا[2]. وأمّا المسارعةُ فهي من سرَع، وأصلُه خلافُ البُطْء[3] بما يعني المبادرة إلى الشيء والتعجُّل إليه سواءٌ في باب الخيرات، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: 61] أي: يبادرون إليها حتى لا تفوتهم، أوْ في غير باب الخيرات كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [آل عمران: 176].

المسارعةُ تستعمل في القرآن محمودةً ومذمومةً، بخلاف التعجيل فإنه في عامة القرآن مذمومٌ

وعليه فالفرقُ بين العجلة والمسارعة في استعمال القرآن، هو أنَّ العجلة طلبُ الشيء في غير أوانه، وأنها تستعملُ غالبًا في مقام الذمِّ، وأما المسارعة فتعني التقدُّمَ في الشيء وهي بحسب موضوعها خيرًا كان أوْ شرًّا، فتكون محمودةً أوْ مذمومةً، وقد استعملها القرآن في المقامين.

الاستغفار والتوبة:

قال العسكري في الفرق بينهما: إنّ الاستغفار: طلبُ المغفرة بالدّعاء والتوبة أوْ بغيرهما من الطّاعة. والتوبة: الندمُ على الخطيئة مع العَزْم على ترك المعاودة[4]، بما يعني أنَّ الاستغفار أعمُّ من التوبة.

تساوي الاستغفار والتوبة انفرادًا، وافتراقهما اقترانًا

(1) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: ما جاء في التأني وعدم العجلة: 4/ 367، حديث رقم: (2131).
(2) الراغب، المفردات: (عجل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سرع).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 235.

على أنَّ كلًّا من اللفظين يتضمَّن معنى الآخرِ عند الانفراد، والتفرقة بينهما لا تكونُ إلى عند الاقتران، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 90]. قال ابن القيِّم: الاستغفارُ يتضمَّن التَّوبةَ، والتَّوبةُ تتضمَّن الاستغفارَ، وكلٌّ واحدٍ منهما يدخُلُ في مسمَّى الآخر عند الإطلاق. وأمّا عند اقتران إحدى اللَّفظتين بالأخرى، فالاستغفارُ: طلبُ وقايةِ شرِّ ما مضى، والتَّوبةُ: الرُّجوعُ وطلبُ وقاية شرِّ ما يخافه في المستقبل من سيِّئات أعماله[1].

(1) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 475.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»